

فضاء آهقار المعماري قراءة في توثيق العمران بين المصادر الأجنبية والذاكرة المحلية.

*Ahaggar's architectural space: a reading of urban
documentation between foreign sources and local memory.*

إبراهيم الشيهاني^{1*}؛ علي كرزيكة².

¹ - مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست؛ جامعة الحاج
موسى آق أخموك؛ تامنغست (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: chihani.brahim@univ-tam.dz

² - مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست؛ جامعة الحاج
موسى آق أخموك؛ تامنغست (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: a.karzika@univ-tam.dz

تاريخ الإرسال: 2025/10/02؛ تاريخ القبول: 2025/11/17؛ تاريخ النشر: 2025/12/15.

الملخص:

تتناول هذه الدراسة النقد التاريخي للعمارة التقليدية في منطقة
أهقار، مشيرة إلى هيمنة السردية الاستعمارية التي أنتجت "فجوة
معرفية" بتهميشها الذاكرة الشفهية المحلية، حيث تقترح الورقة
البحثية نموذجاً منهجياً يعتمد على المقارنة النقدية بين ثلاثة مصادر:
الأرشيف الأجنبي المكتوب، والذاكرة الشفهية المحلية، والسجل
الأثري المادي.

يكشف التحليل كيف قدمت المصادر الأجنبية (كالاستكشافية والإثنوغرافية والأنثروبولوجية) رؤية استشراقية مجتزأة؛ في المقابل، تكشف الذاكرة المحلية عن فهم رمزي وديناميكي للعمران، بينما يثبت السجل الأثري وجود تنظيم هندسي معقد ومحلي سابق للاستعمار. خلصت الدراسة إلى ضرورة تحرير التاريخ المعماري عبر قراءة نقدية للمصادر الأجنبية ودمجها مع الرواية المحلية والمواد الأثرية.

الكلمات المفتاحية: العمارة التقليدية (أهقار)؛ السردية الاستعمارية؛ الذاكرة الشفهية؛ السجل الأثري؛ النقد التاريخي.

Abstract:

This study presents a historical critique of the traditional architecture in the Ahaggar region, highlighting how dominant colonial narratives have created a "knowledge gap" by marginalizing local oral memory, as it proposes a methodological framework based on a critical comparison of three sources: foreign written archives, local oral memory, and the material archaeological record, where the analysis reveals how foreign sources (exploratory, ethnographic, and anthropological) offered a fragmented, orientalist perspective; In contrast, local memory unveils a symbolic and dynamic understanding of the built environment, while the archaeological evidence confirms the existence of a complex, pre-colonial indigenous architectural organization. The study concludes by advocating for liberating architectural history through a critical re-reading of foreign sources integrated with local narratives and material evidence.

Keywords: Traditional Architecture (Ahaggar); Colonial Narrative; Oral History; Archaeological Record; Historical Critique.

مقدمة:

يُمثل الفضاء المعماري في منطقة آهقار سجلاً حضارياً غنياً، إلا أن تاريخه ظل محصوراً ضمن سردية سائدة صاغتها الكتابات الأجنبية خلال الحقبة الاستعمارية. ورغم القيمة التوثيقية لهذه المصادر، التي أرست أساس المعرفة الأكاديمية عن المنطقة، إلا أنها أنتجت "فجوة معرفية" عميقة عبر تهमيشها للذاكرة الشفهية للمجتمع المحلي، وتقديمها لتاريخ معماري أحادي الجانب يخدم أحياناً أهداف الهيمنة أو يعكس رؤية استشراقية. لقد تعاملت هذه الكتابات مع الفضاء ككيان مادي قابل للقياس والسيطرة، وأهملت نوعاً ما أبعاده الرمزية والاجتماعية التي تشكل جوهر العلاقة بين الإنسان وبيئته في الصحراء.

لمعالجة إشكالية، الورقة البحثية تطرح إطاراً منهجياً نقدياً يهدف إلى "تحرير التاريخ المعماري للآهقار من التسليم الكلي بما كتب". يقوم هذا الإطار على مقارنة نقدية بين ثلاثة مصادر معرفية أساسية: الأرشيف الأجنبي المكتوب، والذاكرة المحلية الشفهية، والسجل الأثري المادي. فمن خلال تفكيك الكتابات الأجنبية ووضعها في سياقها التاريخي، بدءاً من مرحلة الاستكشاف العسكري مع هنري دوفيرييه، مروراً بالمرحلة الإثنوغرافية مع ET CHARLES DE FOUCAULD HENRI LHOTE، ووصولاً إلى الأنثروبولوجيا الحديثة مع بول باندولفي، يكشف البحث عن التحيزات الكامنة في نظرتها.

وعلى النقيض من ذلك، تُبرز الدراسة غنى الذاكرة المحلية التي تقدم فهماً ديناميكياً للعمران؛ فالخيمة (الأهكيت) لا تظهر كمجرد

مأوى، بل "كقصر متقل" ورمز للسيادة النسائية، ويُنظر إلى الفضاء الطبيعي كبيت مأهول بالمعاني والقصص. وفي هذا السياق، يعمل السجل الأثري، من ضريح تين هينان العريق إلى قصبة سيلت، كوسيط مادي يثبت وجود تنظيم اجتماعي وهندسي محكم سبق التأثيرات الخارجية، ويسلط الضوء على الدور المنسي لجماعات كالحراطين والإينادن كبناء ومساهمين فاعلين في تشييد العمارة المستقرة.

تكمن المساهمة المعرفية الأساسية لهذه الدراسة في اقتراح نموذج منهجي لا يرفض الأرشيف الأجنبي، بل يدعو إلى "قراءته بتفحص شامل لكل تفاصيله" ووضعه في حوار متكافئ مع الذاكرة المحلية والآثار المادية. ومن خلال هذا التقاطع بين السرديات، تهدف الورقة إلى بناء تاريخ معماري أكثر توازناً وعدالة، يعيد الاعتبار للتقصي الميداني للآثار والتحليل الموضوعي للمصادر الأجنبية، لفهم كيفية بناء وتذكر الفضاء في واحد من أكثر الأقاليم تضردا(الشهيري، 2004: 62).

يمكن تصنيف المساهمات الأكاديمية الأجنبية حول عمارة أهقار إلى ثلاث مراحل رئيسية، كشفت عن تحولات في المنهج والهدف، لكنها احتفظت عموماً بالنظرة الفوقية على المنطقة وأهلها.

1. مرحلة الاستكشاف العسكري (1860-1920م):

تميزت هذه الفترة بأعمال استكشافية ذات طابع جغرافي وعسكري، ركز هذا التيار بشكل أساسي على التوثيق الجغرافي والاستراتيجي بهدف السيطرة العسكرية والإدارية على الصحراء. لم

تكن المعرفة غاية في حد ذاتها، بل أداة للهيمنة. أبرز المصادر التي تمثل هذا التيار هي:

أعمال (HENRI DUVEYRIER 1864: 329) العمل التأسيسي لهذه المرحلة. لم يكتفِ بالوصف الجغرافي، بل قدم تحليلاً استراتيجياً للبنية السياسية للطوارق بهدف تسهيل التغلغل الفرنسي، مما يجعله نموذجاً للمعرفة الموجهة لخدمة السيطرة.

حيث كان الهدف الأساسي هو رسم الخرائط وتحديد الموارد وتوثيق البنى القبلية بهدف السيطرة. ويُعد عمل HENRI DUVEYRIER، نموذجاً لهذه المرحلة التي ربطت المعرفة بالهيمنة. لم تكن تقاريره مجرد وصف، بل كانت تحليلاً استراتيجياً للبنية السياسية للطوارق والمجتمع المحلي، مصممة لتسهيل التغلغل الفرنسي. وقد ركزت هذه المرحلة على الجانب المادي القابل للقياس (المسالك، الآبار، عدد الخيام)، مع تجاهل للمعاني الثقافية والرمزية للفضاء. لم يكتفِ برسم المسالك، بل، يقدم مقترح استراتيجيات للتعامل مع المجتمع المحلي، حيث كان على دراية بالنظم السياسية والاجتماعية للطوارق وغيرهم. كانت أوصافه لمخيماتهم والتحصينات، إغرماني، مرتبطة بشكل مباشر بتوصيات سياسية وعسكرية تهدف إلى تسهيل التغلغل الفرنسي. لقد نظر DUVEYRIER إلى الفضاء من منظور عسكري، حيث تم تقييم كل عنصر معماري أو جغرافي بناءً على خطورته المحتملة للمشروع الفرنسي. وقد ساهمت هذه النظرة في ترسيخ صورة الصحراء كفضاء فارغ يجب "ملؤه" بالسلطة الفرنسية، مع إهمال تام لكيفية إدراك السكان المحليين لهذا الفضاء وتنظيمه. (DUVEYRIER HENRI, 1864)

تقارير بعثة الكولونيل فلاترز (FLATTERS, 1881) على الرغم من نهايتها المأساوية، كانت التقارير والتحليلات الناتجة عن هذه البعثة مصدرًا استخباراتيًا حيويًا. كشفت عن قوة وتنظيم الطوارق وشكلت الاستراتيجيات الفرنسية اللاحقة للتعامل معهم.

تقارير وخرائط الهيئة الجغرافية للجيش (FRANCE, ARMÉE SERVICE GÉOGRAPHIQUE, 1890) يمثل هذا الإنتاج المؤسسي للدولة الفرنسية ما يمكن تسميته بـ "الاستيلاء الخرائطي" على المنطقة. كانت الخرائط والتقارير الطبوغرافية أدوات حاسمة لتحويل الفضاء الاجتماعي إلى شبكة من النقاط والموارد القابلة للسيطرة العسكرية.

نتائج بعثة فورو لامي (FOUREAU: 1898-1900) LAMY (FOUREAU, 1905) مثلت هذه البعثة الضخمة تتويجاً لمرحلة الاستكشاف العسكري. نجحت في عبور الصحراء ودمجت القوة العسكرية مع البحث العلمي، وقدمت بيانات جغرافية هائلة، والأهم من ذلك أنها فرضت وجوداً عسكرياً فرنسياً مهد الطريق لإخضاع منطقة آهقار بشكل كامل.

2. المرحلة الإثنوغرافية - اللغوية 1900-1960م:

شهدت هذه الفترة تحولاً نحو التوثيق الثقافي المفصل، مع أعمال (CHARLES DE FOUCAULD) الموسوعية حول اللغة والمجتمع، وأبحاث (HENRI LHOTE) حول الفن الصخري، ورغم القيمة التوثيقية الهائلة لهذه الأعمال، إلا أنها بقيت مؤطرة بخلفيات تبشيرية أو استشرافية. فعمل (CHARLES, 1951- 1952) رغم غناه اللغوي، صور ثقافة الطوارق ككيان ثابت ومنعزل يمكن "فهمه" بهدف "إصلاحه". أما LHOTE،

فقد فصل الفن الصخري عن سكانه المعاصرين، مقدماً إياه كإرث حضارة غابرة، مما ساهم في نزع الشرعية التاريخية عن الطوارق في علاقتهم بأرضهم (Lhote, 1955).

الأرشيف الإثنوغرافي لـ CHARLES DE FOUCAULD ET HENRI LHOTE

مع بداية القرن العشرين، تحولت النظرة من التوثيق الاستراتيجي إلى جرد ثقافي أكثر تفصيلاً، لكنه ظل متحيزاً. يمثل CHARLES DE FOUCAULD هذا التحول. فرغم القيمة الهائلة لعمله اللغوي في *DICTIONNAIRE TOUAREG- FRANÇAIS* (FOUCAULD, 1951-1952) إلا أنه أطر ثقافة الطوارق وعمارتهم من خلال عدسة تبشيرية، حيث سعى إلى فهم روح الشعب كمدخل لتغييرها. لقد وثّق أدق تفاصيل بناء الخيمة والأدوات المنزلية، لكنه نزع عنها سياقها السياسي والاجتماعي المقاوم، وقدمها كجزء من فولكلور ثابت ومنعزل عن التحولات التاريخية الكبرى. في المقابل، يمثل (HENRI LHOTE) نموذجاً آخر من التوثيق المتحيز. فرغم أنه كشف للعالم عن التاريخ الفني العميق للمنطقة من خلال دراساته عن فنون الطاسيلي الصخرية في كتابه *THE SEARCH FOR THE TASSILI FRESCOES* (HENRI.LHOTE, 1959: 49)، إلا أن تفسيراته غالباً ما أسقطت نماذج تطويرية أوروبية على هذا الفن، وفصلته عن ثقافة الطوارق الحية، مقدماً إياه كإرث حضارة غابرة لا صلة لها بسكان المنطقة المعاصرين، مما ساهم في خلق قطيعة متخيلة بين ماضي المنطقة وحاضرها.

FOUCAULD, CHARLESDE. (1951- 1952). *DICTIONNAIRE TOUAREG- FRANÇAIS: DIALECTE DE L'AHAGGAR*. (4 VOL.). PARIS: IMPRIMERIE NATIONALE DE FRANCE.

GAST, MARCEAU. (1968). *ALIMENTATION DES POPULATIONS DEL'AHAGGAR: ÉTUDE ETHNOGRAPHIQUE*. PARIS: ARTSETMETIERS GRAPHIQUES.

LHOTE, HENRI. (1955). *LES TOUAREGS DU HOGGAR (AHAGGAR)*. PARIS: PAYOT.

NICOLAISEN, JOHANNES. (1963). *ECOLOGY AND CULTURE OF THE PASTORAL TUAREGS*. COPENHAGEN: NATIONAL MUSEUM OF COPENHAGEN.

3. مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة (ما بعد 1960م):

بعد استقلال الجزائر، استمرت الأنثروبولوجيا الفرنسية في الهيمنة على دراسات أهقار، لكن مع تحول في التركيز نحو تحليل البنى الاجتماعية والقراءة والأنظمة الرمزية. يمثل PAUL PANDOLFI هذا الجيل، حيث قدم في كتابه *LES TOUAREGS DE L'AHAGGAR* (Pandolfi, 1998) تحليلاً معمقاً للعلاقات الاجتماعية وتأثيرها على الفضاء السكني. ومع ذلك، بقيت هذه الدراسات، في معظمها، أسيرة منظور أكاديمي غربي يتعامل مع مجتمع الطوارق كـ "مختبر" لدراسة النظريات الأنثروبولوجية (مثل البنيوية والرمزية)، مع تجاهل نسبي للسياق السياسي الوطني المتغير وتأثير سياسات الدولة الجزائرية على أنماط الاستقرار والعمران. هذا التوجه، ورغم عمقه التحليلي، ساهم في إبقاء مجتمع الأهقار في خانة "الموضوع" الغريب القابل للدراسة، بدلاً من اعتباره فاعلاً تاريخياً يمتلك صوته الخاص. (Pandolfi PAUL, 1998: 150).

واصلت الأنثروبولوجيا الفرنسية في دراسة البنى الاجتماعية والتحول الأنثروبولوجي البنية والرمزية والسياسة والقراءة لدى الطوارق والمجتمع المحلي، مع باحثين مثل (PAUL PANDOLFI) و

LES TOUAREGS DE PANDOLFI قدم في كتابه (ANDRE BOURGEOT (1998) *L'AHAGGAR* تحليلاً بنيوياً عميقاً للقراءة وأثرها على الفضاء. تُظهر هذه المراجعة وجود "فجوة معرفية" واضحة، تتمثل في غياب دراسات تضبط بشكل منهجي هذه السرديات الأجنبية مع الذاكرة المحلية الغنية وغير المكتوبة، مما أنتج تاريخاً معمارياً أحادي الجانب (BOURGEOT, 1995: 258). أما عن النظرة الأجنبية وتوثيق الفضاء المعماري في آهقار من قبل الأجانب لم يكن فعلاً معرفياً محايداً، بل كان جزءاً لا يتجزأ من المشروع الكولونيالي الذي سعى إلى فهم المنطقة بهدف السيطرة عليها. وقد تطورت هذه النظرة عبر مراحل، لكنها احتفظت بخيط ناظم مشترك وضع المراقب الغربي كمنتج وحيد للمعرفة الشرعية الصحيحة عن المنطقة. يتميز هذا التيار بتحليل أعمق للبنى الاجتماعية والقراءة والهوية، مع استخدام مناهج نظرية أكثر حداثة. هذه بعض نماذج المصادر التي تخدم هذا التوجه.

ATKINSON, PAUL, ET AL. , EDS. (2001). *HANDBOOK OF ETHNOGRAPHY*. LONDON: SAGE PUBLICATIONS LTD.

CLAUDOT- HAWAD, HELENE. (2002). *TOUAREGS: APPRIVOISER LE DESERT*. PARIS: GALLIMARD.

KEENAN, JEREMY. (2004). *THE TUAREG: PEOPLE OF AHAGGAR*. (2ND ED.). LONDON: SICKLE MOON BOOKS.

PANDOLFI, PAUL. (1998). *LES TOUAREGS DE L'AHAGGAR: PARENTE ET RESIDENCE CHEZ LES DAG- GHALI*. PARIS: KARTHALA.

PRUSSIN, LABELLE. (1995). *AFRICAN NOMADIC ARCHITECTURE: SPACE, PLACE AND GENDER*. WASHINGTON, D.C.: SMITHSONIAN INSTITUTION PRESS.

SPITTLER, GERD. (2000). *LES TOUAREGS FACE AUX SECHERESSES ET AUX FAMINES: LES KELEWEY DE L'AÏR (NIGER)*. PARIS: KARTHALA.

4. أبرز معالم التراث العمراني لمنطقة أهقار من عصور ما قبل التاريخ إلى الفترة الحديثة:

1.4. مواقع فترة ما قبل التاريخ:

شهدت منطقة أهقار حضوراً بشرياً يعود لمئات آلاف السنين، حين كانت ذات مناخ رطب وبيئة شبيهة بالسافانا مع وفرة مصادر مياه ومراعي وغابات خفيفة سمحت بالاستقرار والزراعة الرعوية، كما ساعدت وفرة الموارد المحلية كالحجارة والأخشاب والنباتات البرية السكان على بناء مساكن متلائمة مع متغيرات المناخ، واختيار مواقع قريبة من منابع المياه والمرتفعات لأغراض الدفاع والتكيف. والأدلة على هذا التاريخ ليست معمارية بالمعنى التقليدي، بل هي أدوات حجرية وفنون صخرية تركت بصمتها على المشهد الطبيعي. ومن أمثلة ذلك مواقع الفن الصخري (تقدست، أقنار، تيت) وتعد هذه المواقع بمثابة متحف مفتوح يضم آلاف النقوش والرسوم التي تؤرخ للتحويلات البيئية والمجتمعية، وتصور مشاهد الصيد والرعي والحياة اليومية (هقاري محمد، 2022: 63-74).

1.1.4. موقع أمكني (AMEKNI) :

يُعتبر من أقدم الشواهد على قرية شبه مستقرة (حوالي 6700 ق.م)، ويحتوي على بقايا أكواخ ومواد عضوية وكميات كبيرة من الفخار وأدوات طحن الحبوب. هذه الأدوات توضح تطور المساكن والأكواخ وفنون الصيد والرعي، مما يعكس انتقال الإنسان من الترحال كصياد إلى نمط استقرار نسبي. وقد نشأ هذا النموذج العمراني والاجتماعي الأصيل من التفاعل العميق بين الإنسان وبيئته،

حيث ساهم هذا الاستقرار في تشكيل أنماط اجتماعية متماسكة وانعكس في تنظيم الفضاء وتوزيع المساكن والمرافق بشكل جماعي وليس فردي. أما الأعراق البشرية التي عاشت في هذه الفترات حسب أغلب التقديرات، فشملت الجيتول (GAETULI) وهم رعاة وشبه مستقرين من أصول أفريقية أمازيغية، تعايشوا مع الأمازيغ الأوائل خصوصاً من شمال إفريقيا، ومجموعات صحراوية أخرى، وإفريقية - حبشية ساهمت في تكوين النسيج السلالي للمجتمعات الزراعية والرعية، إذ تطورت هذه الجماعات لاحقاً لتشكل أساس الطوارق وبوتقة الثقافة الصحراوية المعروفة .

2.1.4. الفن الصخري لما قبل التاريخ والمساكن المبكرة:

يوفر الفن الصخري في أهقار وما جاورها من الأقاليم سجلاً زمنياً عميقاً للاستيطان البشري والتنظيم المكاني. تُظهر الرسوم التي تعود إلى آلاف السنين مشاهد تصور الأكواخ والمخيمات الدائرية، وهي أشكال تشبه إلى حد كبير الخيام الطارقية اللاحقة، مما يشير إلى استمرارية ثقافية ومعمارية طويلة الأمد في المنطقة. وقد أكدت (GINETTE AUMASSIP) في دراساتها على شكل كتاب جماعي *MILIEUX, HOMMES ET TECHNIQUES DUSAHARA PREHISTORIQUE* أن مواقع ما قبل التاريخ تحتوي على آثار حفر لدعائم أكواخ شبيهة بتلك المستخدمة حديثاً، مما يدعم فرضية الاستمرارية. هذا الربط الإثني - أثري يتحدى فكرة أن ثقافة الطوارق المعمارية وافدة أو حديثة (AUMASSIP Ginette, 1994: 184).

3.1.4. مواقع العصور القديمة (فترة فجر التاريخ):

تتميز هذه الفترة، الممتدة من نهاية العصر الحجري الحديث حتى بزوغ الإسلام، بغياب العمارة السكنية الواضحة، لكنها غنية بالعمارة الجنائزية الضخمة التي تدل على وجود مجتمعات منظمة ذات معتقدات متطورة، أي اتضح لها أكثر مفهوم الحياة والموت، الوجود والآخرة. وبقيت الأعراق البشرية على شكلها السابق.

البازينات (BAZINAS) : هي مدافن على شكل أبراج حجرية دائرية أو مربعة، وتُعتبر النوع الأكثر انتشاراً في أهقار، خاصة في محيط أبالسة ومقبرة تيت (Bernezat Jean, 2004: 22).

التشوشات (CHOUCHET) : هي مدافن مميزة تعرف بشكل "ثقب المفتاح"، وتتألف من برج دفن دائري يتصل به ممران متوازيان من الحجارة، وغالباً ما ترتبط بحضارة الجرمنتين الدوائر الحجرية والممرات: هياكل يُعتقد أن وظيفتها كانت طقوسية أو فلكية بالدرجة الأولى، وتوجد غالباً بجانب مناطق الدفن الأخرى كما في موقع تيت.

ضريح تين هينان (أبلسة): يقع هذا الضريح في منطقة أبلسة (80 كلم غرب تامنغست) ويُعد المعلم الأثري الأبرز، ممثلاً ذروة العمارة الجنائزية لفترة ما قبل الإسلام في المنطقة. (Gautier Emile- Félix, 1934 :1-12).

2.4. المعالم الإسلامية:

مع توسع الإسلام وتطور طرق التجارة، انتشر في أهقار تجمعات سكانية جديدة على شكل قرى محصنة (قصور) وزوايا دينية في مواقع استراتيجية، ومراكز استراحة على طول المسارات التجارية. حيث شكل كل تجمع سكاني استجابة مباشرة لجغرافيا الموقع

واحتياجات القوافل لنقاط تزود واستراحة وحماية. وما فيها من مداخل مادية معتبرة وجيدة ساهم في توطيد الترابط بين الإنسان وبيئته. انتقل قسم كبير من الطوارق من نمط حياة الترحال إلى بناء قرى شبه مستقرة، مع استمرار الرمزية في الخيمة "الأهكيت" كفضاء اجتماعي وسياسي يعكس قيم السيادة، حتى مع تطور العمران الطيني والحجري. أما عن الأعراق البشرية المنتشرة في تلك الحقبة فهي قبائل الطوارق "KEL AHAGGAR" كعنصر سلالي أمازيغي، وانضم إليهم سكان الواحات (الحراطين وغيرهم) وجماعات مغربية قادمة للتجارة أو التصوف، بالإضافة إلى موجات إفريقية فرعية نتيجة اهتمام القوافل التجارية بالصحراء وانتشار الحرية النسبية بين المهاجرين والسكان الأصليين. استمر تأثير قبائل الطوارقي كعنصر غالب خاصة في تنظيم الفضاء وإدارة الدورة التجارية. أما الزراعة فكانت بمساعدة سكان أقاليم توات وتيديكلت (هقاري، 2016: 62).

ومن أمثلة عمران الاستقرار نجد:

قصة تيت (TIT): قلعة دفاعية وسكنية (40 كلم شمال غرب تمنغست)، تتميز بتصميمها المبني حول فناء مركزي يضم بئراً وجدراناً عالية تصل إلى 6 أمتار.

قصة سيلت (SILET): حصن ومحطة تجارية هامة (140 كلم غرب تامنغست)، يتميز بتصميمه المربع المحاط بالأبراج واعتماده على مواد بناء محلية من الحجر والطين.

والمراكز السكانية الأولى: تشمل مواقع مثل أبلسة، وإن أمغيل، وإدلس، وتاظروك مركز العمارة الحجرية والطينية،

وهيرافوك، وتيفرت الشرقية والغربية، والتي نشأت كمحطات استراحة وتزود بالمؤن على طرق القوافل (ياسمين، 2013: 71؛ هاندي، 2015: 16 - 17).

3.4. غياب العمارة السكنية في فترة فجر التاريخ:

إن غياب العمارة السكنية الدائمة في هذه الفترة ليس دليلاً على غياب السكان، بل هو انعكاس مباشر لنمط حياتهم الذي كان يعتمد بشكل أساسي على الترحال والرعي، حيث استُخدمت مساكن مؤقتة من مواد قابلة للتلف (جلود وأخشاب) لا تترك أثراً واضحاً. في المقابل، بُنيت العمارة الجنائزية من الحجارة لتبقى شاهدة، مما جعلها الأثر المادي الأبرز، وقد تأثر فهم هذه الفترة بالمنظور الذي وثقها.

وركزت المصادر الأجنبية (الكولونيالية) على المعالم الحجرية الضخمة كالقصور والمقابر، معتبرة إياها الدليل الوحيد على وجود "حضارة"، بينما أهملت أنماط السكن المتنقلة.

الذاكرة المحلية: تُعلي من شأن الفضاء الاجتماعي والرمزي، فخيمة النبلاء "الأهكيت"، رغم بساطتها، تحمل قيمة سياسية ورمزية تفوق أي بناء حجري، لكونها مركز السيادة النسائية والنسب الأمومي. LABELLE PRUSSIN, AFRICANNOMADIC ARCHITECTURE: (Prussin L., 1995: 115- 125).

5. السجل المادي وقراءة إثنو -أثرية للبيئة المبنية:

يعمل السجل الأثري كوسيط حاسم بين الأرشيف الأجنبي المكتوب والذاكرة المحلية الشفهية. يمكن استخدامه للتحقق من أي

ادعاء وتحدي التفسيرات المتحيزة، وتقديم بُعد مادي ملموس لتاريخ العمارة في المنطقة (داحمي، 2023: 57).

تُقدم الذاكرة المحلية تصوراً فريداً للعمارة يعتمد على الديناميكية والعلاقات الاجتماعية، بخلاف السرديات الاستعمارية التي ركزت على البنى الثابتة. الخيمة (أهكيت)، كما تشير الباحثة لابليل بروسين في كتابها. (Prussin L., 1995: 1- 15) ليست مجرد مأوى بل مركز الحياة الاجتماعية وامتداد للنظام الأمومي حيث تملكها المرأة كحق مكتسب مع الزواج، وترتبط بطقوس وعلاقات تُرسخ مكانة الأسرة ودور المرأة كفاعلة أساسية في بناء الفضاء. وتصف بروسين كيف أن المواد والتقنيات المستخدمة في صناعة الخيمة النبيلة، جلد الماعز المصبوغ بالمغرة الحمراء، تعكس رموز السلطة والحياة والخصوبة، وأن إعادة بناء الخيمة يوازي تأسيس بيت جديد في المجتمعات الصحراوية.

يمتد هذا الفهم إلى المشهد الطبيعي نفسه، إذ يمنح الطوارق الجبال والوديان والآبار وأماكن العيش أسماء وقصصاً ويحولونها إلى جزء من "خريطة معرفية" حية لا تحدد الحقوق فحسب ولكن تخلق ذاكرة مكانية تتناقلها الأجيال عبر الشعر والأمثال والمجالس القبلية. وقد أكد جيريمي كينان في كتابه، على أهمية هذا النظام الشفوي في ضمان حقوق الرعي والماء، معتبراً إياه سجلاً عقارياً وقانونياً متكاملًا يُغفل غالباً في المصادر الأجنبية التي وصفت الصحراء كفراغ أو فوضى (Jeremy., 2004: 211).

وعند التحول نحو الاستقرار، لا تطرح الذاكرة المحلية ذلك كـ"تقدم" تدريجي بل كمرحلة تكيف مع تغيرات المناخ والقوافل والجفاف، بدءاً بالزربية (كوخ بسيط) وصولاً إلى الأغرم (القرية أو البيت المحصن)، والتي توثقها شهادات المؤرخين المحليين مثل محمد هقاري، في سرد دقيق لتأسيس أولى الواحات وتقنيات الري الفقارية وجذورها المحلية بعهد الأموكال الحاج البكري (1877 - 1900)، مع رفض فكرة أن العمران الثابت ارتبط حصرياً بالوجود الفرنسي. (مزراق محمد ، 2018: 73).

أما الهياكل الحجرية الضخمة، مثل ضريح تينهان في أبلسة الذي وثقه غوتيه وريغاس في دراستهما فتُعد دليلاً على براعة الطوارق الهندسية ووجود تنظيم اجتماعي وثقافي راق يسبق التأثيرات الخارجية المنظمة. وبالمثل، فإن قصبة سيلت، بناؤها المربع المحيط بالأبراج وموقعها الاستراتيجي، تمثل نموذجاً للعمارة الدفاعية والتخزين المحلي، وقد وثق الأستاذ كريم عريب تفاصيلها في كتابه عن الهندسة التقليدية في آهقار (Gautier E. F., 1934: 1- 12).

وتكشف دراسة المخيمات المهجورة من خلال منهجية "علم الآثار البدوي" عن التفاصيل اليومية للحياة الصحراوية: توزيع المواقد، مواقع الخيام، أكوام النفائات، ما يتيح قراءة دقيقة لتركيبية وحجم وطبيعة الأنشطة في المخيمات، ويعيد الاعتبار لعناصر حياة البداوة التي أهملتها السرديات الأجنبية لصالح العمارة الحجرية الضخمة.

وتتأكد نقاط التباين بين السرديات المحلية والاستعمارية في مدينة تامنغست التي يصورها الأجانب كمركز حديث نشأ مع الإدارة

الفرنسية، بينما يراها الطوارق استمراراً لمخيم تاريخي سابق للوجود الفرنسي بكثير، ويشير هقاري (شهادة مسجلة، 2021) إلى أن عدد الأسر كان محدوداً جداً عام 1905، وأن مقر السلطة التقليدية للأمنوكال لم ينتقل لتامنغست إلا حديثاً بتأثير خارجي (هقاري، 2021: 10).

ويُعَلِي الطوارق من الفضاء المتحرك للمخيم أكثر من القصر الحجري، إذ تكتسب الخيمة النبيلة قيمة رمزية وسياسية تُختزل فيها السيادة النسائية والنسب الأمومي، ما يجعلها "القصر الحقيقي" بعرف المجتمع المحلي، وهو مفهوم يصعب على السردية الاستعمارية المرتبطة بالملكية الثابتة استيعابه. أما الدور المغفل للحراطين والإينادن، فله خصوصية كبيرة؛ إذ أن الحرفيين الإينادن والمزارعين الحراطين كانوا أصحاب المعرفة التقنية الفعلية في بناء العمارة المحلية كالقصور والمساجد ونظام الفقرات، استخدام الحجر والطين المحلي، وهو ما أهملته الروايات الأجنبية والشفوية للنبلاء. تؤكد البحوث الحديثة أن استعادة دورهم ضرورية لكتابة تاريخ معماري أكثر عدالة وشمولية يتجاوز سرد النخبة والفاعلين الخارجيين ويقدم صورة متكاملة لكيفية بناء الفضاء المعماري والاجتماعي في أهقار (Bourgeot A. , 1975: 15).

6. رواد البحث الميداني والتحليل النظري الذين اهتموا بدراسة منطقة أهقار:

HENRI DUVEYRIER (1840-1892) : يُعد مستكشفاً

وأنثروبولوجياً فرنسياً، وهو المؤسس الفعلي للدراسات الاستعمارية

حول الطوارق. ركز على توثيق البنية القبلية ونظام السيادة التقليدي
لديهم، مما أسهم في تشكيل الصورة الأوروبية عنهم.

CHARLES DE FOUCAULD (1858-1916) : راهب

ومستكشف لغوي فرنسي، قدم أول توثيق لغوي شامل للهجة الطارقية
في الأهقار. دوّن تفاصيل الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية، وأسهم
في بناء المعرفة الأوروبية حول ثقافتهم.

PAUL PANDOLFI (1947) : أنثروبولوجي اجتماعي معاصر،

حلل العلاقة بين النسب والإقامة وكيف يعكس التحول من الخيمة إلى
البناء الثابت إعادة تشكيل السلطة الأسرية والجنسانية في المجتمع
الطارقي.

ANDRE BOURGEOT (1946) : أنثروبولوجي سياسي، اعتمد

المنهج البنيوي لتحليل آليات المقاومة الاجتماعية والثقافية لدى الطوارق.
ركز على مفاهيم الهوية والسيادة في المجتمعات الرعوية في ظل الأنظمة
الاستعمارية وما بعدها.

PIERRE BONTE (1942) : أنثروبولوجي رمزي واجتماعي، حلل

النظام السياسي والرمزي للطوارق، مع التركيز على تشكّل النسب
والسلطة وارتباط ذلك بالتصوف والدين في مجتمعهم.

MARCEL GAST (1927-2010) : لغوي وأنثروبولوجي ثقافي،

وثّق مفردات اللغة اليومية والطقوس، وركز على الرمزية اللغوية
المرتبطة بالبنية الاجتماعية لفهم أبعاد الحياة اليومية.

BERNARD BERNUS (1929-2001) : أنثروبولوجي وجغرافي،
درس التباين بين قبائل الطوارق في الأهقار والساحل، وقدم تحليلاً
رائداً يربط بين البيئة والمجتمع وتأثير المناخ على التنظيم الاجتماعي.
SOPHIE CARATINI (1948) : أنثروبولوجية سياسية معاصرة،
حللت التحولات الاجتماعية والسياسية للطوارق بعد الاستقلال، مع
التركيز على صعود الحركات السياسية الحديثة وتطور الهوية
الطارقية.
DOMINIQUE CASAJUS (1954) : أنثروبولوجي ثقافي وأدبي،
اهتم بالأبعاد الجمالية والثقافية للهوية الطارقية من خلال الشعر
والرموز، مبرزاً الدور الرمزي للجسد واللون والخيمة.
GEORG KLUTE (1955) : عالم اجتماع سياسي معاصر، درس
الحركات السياسية الطارقية في الجزائر ومالي، وركز على تفاعل
النخب المحلية مع سياسات الدولة الحديثة وإعادة تشكيل السلطة.
تم تجميع هذه التراجم من خلال البحث الأنثروبولوجي حول
الطوارق تطوراً من البدايات الاستعمارية (HENRI DUVEYRIER, 1864)
مروراً بالتوثيق اللغوي والثقافي المبكر (FOUCAULD, 1951-1952)
وصولاً إلى جيل الأنثروبولوجيا البنيوية والسياسية المعاصرة
(BOURGEOIS, 1995; PANDOLFI, 1998) والنقد الأنثروبولوجي
الأنجلوساكسوني (KEENAN, 2004).

خاتمة:

تكشف هذه الورقة البحثية إشكالية عميقة في تأريخ الفضاء
المعماري لمنطقة أهقار، تتمثل في الهيمنة المعرفية للسردية الأجنبية التي

تشكلت في سياق استعماري، وما نتج عنها من تهميش للذاكرة المحلية الشفهية. لقد سعت هذه الدراسة إلى تفكيك هذه السردية المهيمنة واقتراح إطار منهجي يهدف إلى بناء تاريخ معماري أكثر توازناً وعدالة، وذلك عبر إقامة حوار نقدي بين الأرشيف الأجنبي، والذاكرة المحلية، والسجل الأثري المادي.

أظهر البحث أن النظرة الأجنبية للأهقار وعمارتها لم تكن محايدة، بل تطورت عبر مراحل احتفظت بخيط ناظم مشترك، وهو وضع المراقب الغربي كمنتج وحيد للمعرفة الصحيحة ويمكن تقسيم الموضوع إلى ثلاث مراحل لتوضيح خطوات البحث السابقة.

المرحلة الأولى، مرحلة الاستكشاف العسكري (1860- 1920) جسدها هنري دوفيرييه، الذي ربط المعرفة بالهيمنة، فكان توثيقه للمسالك والخيام والتحصينات يهدف إلى تسهيل التغلغل الفرنسي، مع إهمال الأبعاد الرمزية للفضاء.

المرحلة الثانية، الإثنوغرافية، اللغوية (1900- 1960) ورغم قيمتها التوثيقية الهائلة مع أعمال شارل دو فوكو وهنري لوت، إلا أنها بقيت مؤطرة برؤية استشراقية أو تبشيرية. فقد صورّ دو فوكو ثقافة الطوارق ككيان ثابت ومنعزل يمكن "إصلاحه"، بينما فصل لوت الفن الصخري عن سكانه المعاصرين، مما ساهم في نزع الشرعية التاريخية عن علاقتهم بأرضهم.

المرحلة الثالثة، الأنثروبولوجيا الحديثة (ما بعد 1960) ومع أنها قدمت تحليلات بنيوية عميقة للبنى الاجتماعية كما في أعمال بول باندولفي، إلا أنها أبقت المجتمع المحلي في إطار "الموضوع الغريب"

للدراسة الأكاديمية الغربية، وأسيرة للأرشيف الكولونيالي في تشكيل أسئلتها البحثية.

في مقابل هذه السردية، أبرزت الدراسة غنى الذاكرة المحلية التي تقدم فهماً ديناميكياً للعمران. ففيها، لا تظهر الخيمة (الأهكيت) كمجرد مأوى، بل "كقصر متنقل" ورمز للسيادة النسائية والنسب الأمومي. كما يُنظر إلى الفضاء الطبيعي كبيت مأهول بالمعاني والقصص، ويُفسَّر التحول نحو الاستقرار ليس كتطور حتمي بل كتكيف استراتيجي. ويأتي السجل الأثري، من ضريح تين هينان إلى قصبة سيلت، ليثبت مادياً وجود تنظيم اجتماعي وهندسي معقد سبق التأثيرات الخارجية، ويسلط الضوء على الدور المنسي لجماعات كالحراطين والإينادن كبنية فعليين للعمارة المستقرة.

تكمّن المساهمة المعرفية الأساسية لهذه الدراسة في تقديم نموذج منهجي لا يرفض الأرشيف الأجنبي، بل يدعو إلى "قراءته بتفحص شامل" ووضعه في حوار متكافئ مع الذاكرة المحلية والآثار المادية. إن الفهم الحقيقي لعمارة آهقار لا يكمن في اختيار سردية على أخرى، بل في بناء تاريخ جديد ينشأ من تقاطع هذه السرديات وتناقضاتها. وهذا يفتح آفاقاً بحثية مستقبلية تركز على جمع المزيد من التاريخ الشفهي، وتطبيق مناهج إثنو، أثرية مبتكرة، وإعادة الاعتبار للأصوات التي تم تهميشها، لإنتاج سردية معرفية متوازنة تتبع من الداخل وتعيد الاعتبار لأصوات الفاعلين المحليين في صياغة تاريخهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 -ترك، ياسمين.(2013). من تراب وطن. ترجمة: مليكة زوية. دليل عمارات. الجزائر: وزارة الثقافة.
- 2 -داحمي، أحمد، (2023)، «تاريخ وأنماط العمارة التقليدية في منطقة الهقار»، مجلة الإنسان والمجال. ص57.
- 3 -دوفيرييه، هنري، (1864)، الطوارق الشماليون: استكشاف الصحراء، باريس: شالاميل آينييه.
- 4 -رو، كريستيان - أندريه كاميل، وغازيل، هيلين، (2015)، «العمارة الطينية: مبادئ وتنوع الاستعمالات»، ورقة عمل مقدمة إلى ندوة حول العمارة الطينية ببلاد المغرب، 2 - 4 يونيو، تازولت، الجزائر: المركز الثقافي لامبيز.
- 5 -الشهيري، سعيد، (2004)، «الطوارق في الصحراء الإفريقية الكبرى»، جريدة الرياض.
- 6 -عقاب، طيب محمد، (2007)، مساكن قصر القنادسة الأثرية: دراسة أثرية معمارية، ط1، دار الحكمة.
- 7 -مزراق، محمد، (2018)، العوامل البيئية وأثرها على العمارة وال عمران في منطقة تيديكلت الشرقية بولاية تمنراست: دراسة أثرية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر - 2 بوزريعة، الجزائر.
- 8 -هقاري، محمد، (2016)، «دور منطقة الهقار في تجارة القوافل الصحراوية ما بين القرن الـ 17 والـ 18م»، مجلة آفاق علمية، المجلد 11، العدد 4، ص. ص. 41 - 19.
- 9 -هقاري، محمد، (2021)، «خبايا تمنراست من آثار وتاريخ "الأستاذ الباحث في التاريخ"»، يوتيوب: [HTTPS://YOUTU.BE/19R3MMPECZ](https://youtu.be/19R3MMPECZ).
- 10-Atkinson, Paul, Coffey, Amanda, Delamont, Sara, Lofland, John, & Lofland, Lyn, (Eds.), (2001), *Handbook of ethnography*, London: SAGE Publications Ltd.
- 11-Aumassip, Ginette, & Onrubia- Pintado, Jorge, (1994), "L'habitat préhistorique au Sahara", In G. Aumassip, N.
- 12-Ferhat, &A. Heddouche(Eds.), *Milieux, hommes et techniques du Sahara préhistorique* (pp. 179- 191), Paris: L'Harmattan.
- 13-Bernezat, Jean-Louis,(2004), *Immidir: La Tassili oubliée*, Grenoble: Glénat.

- 14-Bourgeot, André, (1975), "*Analyse des rapports de production chez les pasteurs et les agriculteurs de l'Ahaggar*", In T. Monod (Ed.), *Pastoralism in tropical Africa* (pp.15-32), London: International African Institute.
- 15-Bourgeot, André, (1995), *Les sociétés touarègues: Nomadisme, identité, resistances*, Paris: Karthala.
- 16-Claudot- Hawad, Hélène, (2002), *Touaregs: Apprivoiser le desert*, Paris: Gallimard.
- 17-Duveyrer, Henri, (1864), *Les Touareg du Nord: Exploration du Sahara*, Paris: Challamel Aîné.
- 18-Flatters, Paul, (1881), *Historique et rapport rediges au service central des affaires indigenes*, Alger: Gouvernement Général de l'Algérie.
- 19-Foucault, Charles de, (1951- 1952), *Dictionnaire Touareg- Français: Dialecte de l'Ahaggar* (Vols. 1- 4), Paris: Imprimerie Nationale de France.
- 20-Foureau, Fernand, (1905), *Documents scientifiques de la mission saharienne (Mission Foureau- Lamy) d'Alger au Congo par le Tchad*, Paris: Masson et Cie.
- 21-France. Armée. Service Géographique, (1890), *Carte topographique de l'Algerie 1:50,000. 13, Collo*, Paris: Service Géographique de l'Armée.
- 22-Gast, Marceau, (1968), *Alimentation des populations de l'Ahaggar: Étude ethnographique*, Paris: Arts et Métiers Graphiques.
- 23-Gautier, Emile- Félix, & Reygasse, Maurice, (1934), "*Le monument de Tin Hinan*", *Annales de l'Academie des Sciences Coloniales*, T. VIII, pp. 1- 12.
- 24-Keenan, Jeremy, (2004), *The Tuareg: People of Ahaggar* (2nd ed.), London: Sickle Moon Books.
- 25-Lhote, Henri, (1955), *Les Touaregs du Hoggar (Ahaggar)*, Paris: Payot.
- 26-Lhote, Henri, (1959), *The search for the Tassili frescoes: The story of the prehistoric rock- paintings of the Sahara*, London: Hutchinson.
- 27-Nicolaisen, Johannes, (1963), *Ecology and culture of the pastoral Tuaregs*, Copenhagen: National Museum of Copenhagen.
- 28-Pandolfi, Paul, (1998), *Les Touaregs de l'Ahaggar: Parente et residence chez les Dag- Ghali*, Paris: Karthala.
- 29-Prussin, Labelle, (1995), *African nomadic architecture: Space, place and gender*, Washington, D.C.: Smithsonian Institution Press.
- 30-Spittler, Gerd, (2000), *Les Touaregs face aux secheresses et aux famines: Les Kelewey de l'Aïr (Niger)*, Paris: Karthala.

